النسقُ الشِّعْريُّ وبُنياتُهُ
مُنطلقاتُ التّأسيسِ المعرفيِّ
والتّوظيفِ المنهجيِّ

Poetic Schema and its Structures
Epistemic Foundation Principles
and Textual Employment

أ.د. طارق ثابت

جامعة باتنة

قسم اللغة والأدب العربي

الجزائر

Prof. Dr. Tariq Thabit

Department of Language and Arabic Literature

University of Batana

ALGERIA

ملخص البحث

إن الاهتمام بمفهوم النسق في الدراسات البنيوية يعود إلى تحول اهتمام التحليل البنيوي عن مفهوم الذات، أو الوعي الفردي من حيث هما مصدر للمعنى، إلى التركيز على أنظمة الشفرات النسقية التي تنزاح فيها الذات عن المركز، وعلى نحو لا تغدو معه للذات أي فاعلية في تشكيل النسق الذي تنتمي إليه، بل تغدو مجرد أداة، ووسيط من وسائطه وأدواته، وفكرة النسق عموما ترتكز على الحصر الشمولي للظاهرة بالتركيز على طبيعة العلاقات المتبادلة بين عناصرها من أجل الوصول إلى هدف محدد، لذا يكتسب مفهوم النسق قيمته داخل البنية في علاقته ببقيّة العناصر أو بموقعه في شبكة العلاقات التي تنتظم العناصر، والتي بها تنهض البنية فتنتج نسقها؛ فالعنصر لا قيمة لوجوده مفرداً، وإنما في سياق علاقات المنظومة، ومن هنا سوف تبحث هذه المداخلة في علاقة النسق بالبنية، محاولين إيجاد مفهوم للنسق الشعري كمصطلح نقدي وتقنية لا تزال في طور التأسيس.

ABSTRACT

The importance of schemata in the structural studies emanates from the surgence of the structural analysis; the personal perception is the fount of meaning , there should be a focus upon the system of decoding in which the self-diverts from the centre. The study tackles the nexus between the schemata and the structure to find a concept to the poetic schemata as a critical term.

... المقدمة ...

أولاً: مفاهيم النسق

نقصد بها، المفاهيم اللغوية، والاصطلاحية للنسق، لنتمكن من تحديد حدود هذا المصطلح والوقوف على أهمّ خصائصه، ففي المفهوم اللغويمفهوم النسق ليس مألوفا في الدراسات التقليدية، نتيجة الطابع التجزيئي، وإهمال العلاقات والروابط القائمة بين العناصر النصية، وإغفال خيوط التشابك بين البنى المختلفة، ذات الدلالة على البنية العميقة؛ وعلى الرغم من غياب مفهوم للنسق بشكل اصطلاحي فقد عرفت اللغة العربية هذا المصطلح؛ الذي يرجع إلى جذره المعجمي، المتمثل في مادة (ن س ق) وهي مادة معجمية تعني النظام، ومصطلح النسق في اللغة العربية يدل على كل نظام في أي شيء وقد ورد في لسان العرب: «النّسقُ من كل شيء ما كان على طريقة نظام واحد، عام في الأشياء، وقد نسقته تنسيقاً، ويخفَّف. ابن سيده نسق الشيء: ينْسقه نسْقا ونسَّق نظَّمه على السواء، وانْتسق هو وتناسق، والاسم النَّسقُ، وقد انْتسقت هذه الأشياء بعضها إلى بعض؛ أي تنسَّقت»[1].

وفي القاموس المحيط «نسَقَ الكلام: عطف بعضه على بعض، والنّسقُ محرّكة ما جاء من الكلام على نظام واحد، ومن الثغور: المُستوية، ومن الخرز: المنظم... ومن كل شيء: ما كان على طريقة نظام عام... والتنسيق: التّنظيم. وناسق بينهما: تابع، وتناسقت الأشياء، وانتسقت وتنسّقت بعضها إلى بعض: بمعنًى»[2]، أما ابن فارس فيقول معرّفا النسق في مقاييسه: «النون والسين و القاف أصل صحيح يدلّ على

تتابع في الشيء وكلام نسق جاء على نظام واحد قد عطف بعضه على بعض وأصله قولهم: «ثغر نسق»، إذا كانت الأسنان متناسقة متساوية[٣]، ومن ذلك ما ورد في قول الشاعر:

بجيدِ ريمٍ كريم زانهُ نسقٌ يكادُ يُلهِبُهُ الياقوتُ إلْهابَا

فالنسق الوارد في البيت الشعري، يعني نظام الأسنان المستوية[٤].

وكما يقول (الغذامي) فإن استخدام كلمة (النسق) «يجري كثيراً في الخطاب العام والخاص وتشيع في الكتابات إلى درجة قد تشوه دلالتها، وتبدأ بسيطة كأن تعني، ما كان على نظام واحد، كما في تعريف المعجم الوسيط، وقد تأتي مرادفة لمعنى (البنية – Structure) أو معنى (النظام – System) بحسب مصطلح دي سوسير، واجتهد باحثون عرب في تصميم مفهومهم الخاص للنسق»[٥].

وفي اللغات الأخرى نجد كلمة système بالفرنسية وكلمة system بالإنجليزية، حيث اعتمد قاموس أطلس؛ الإنجليزي العربي تعريفاً هو: «مجموعة عناصر متفاعلة أو متبادلة العلاقة، أو معتمدة على بعضها البعض، مكونة كلاً معقداً... منظومة تفاعل منسجم ومنظم»[٦]، أما صاحب قاموس المنهل؛ الفرنسي العربي فقد اقترح مقابل système الفرنسية: «نظاماً ونسقاً»[٧]، اما في موسوعة (Encarta) الفرنسية فهو: «مجموعة أشياء أو عناصر ذات وظيفة محددة»[٨]؛ إذن فالنسق système في المعنى اللغوي العام؛ مفردة تدل على الاتساق والانتظام والترتيب؛ أي انتظام عناصر الموضوع بترتيب واتساق، وبمعنى آخر فإن النسق يشير إلى أن المفردات والنشاطات أو العناصر المكونة للمادة أو الموضوع يتصل بعضها ببعض بتوافق وترتيب منتظم يدلُّ على الاتساق والتكامل بنيوياً ووظيفياً، ولأن تعبير النسق يتميز بدرجة عالية من الاتساق والترتيب والنظامية؛ فانه يستخدم استخدامات تختلف

نسبياً عن استخدامات لفظ النظام، ونلاحظ أن معاني النسق الموجودة في هذه المعاجم لا تعدو أن تكون معانيَ عامة لا تحيلنا على معنى دقيق، ولذا سنحاول أن نقارب مفهوم النسق في الاصطلاح لنقف عند حدوده بشكل دقيق.

أما في المفهوم الاصطلاحي: فيتفق الكثير من الدارسين على أنه «ليس هناك تحديد للنسق متفق عليه»[٩]. أما (كمال أبو ديب) فإنه يعترف بأن «مفهوم النسق ودوره في تشكيل بنية العمل الأدبي ما يزال شبه غائب»[١٠]، وقد شكلت قضية النسق بوصفه مصطلحاً جزءاً لا بأس به من أعمال العالم اللساني (فيرديناند دي سوسير Ferdinand De Saussure) وبخاصة نظرية النسق اللغوي التي يرى فيها أن النسق هو: «تلك العناصر اللسانية التي تكتسب قيمتها بعلاقاتها فيما بينها، لا مستقلة عن بعضها...»[١١]؛ فالنسق بحسب هذا نظام يتكون من عناصر لسانية تنطوي من جهة على استقلال ذاتي، ومن جهة أخرى تشكل كلاً موحداً؛ أي أنها في علاقات تجاور وانسجام وتماسك لكي تعطي الدلالة المقصودة في النص، يجمل بنا أن نشير إلى أن (سوسير) لم يستعمل أبداً، وبأي معنى من المعاني كلمة بنية؛ إذ المفهوم الجوهري في نظره هو مفهوم نسق[١٢]، إذن فمفهوم النسق هو مفهوم بنيوي عُرف بأنه: نظام ينطوي على استقلال ذاتي يشكل كلاً موحداً، وتقترن كليته بآنية علاقاته التي لا قيمة للأجزاء خارجها، وكان دي سوسير يعني بالنسق شيئا قريبا جدا من مفهوم البنية، ويرى الكثير من البنيويين؛ أن النسق العام للنص يتشكل في نقطة البداية من الأنساق الكلية، التي هي أنساق نصية؛ بمعنى أن التكوين الدلالي للنص الأدبي ينطلق من النسق اللغوي الكلي؛ الذي يحتوي على أنساق صغرى وكبرى ناقلة للخطاب، في حين يرى بعض الشكلانيين؛ أن النسق العام للنص يتحرك في اتجاه معاكس؛ أي أن الأنساق الصغرى التي هي أنساق فكرية ونصية ناقلة للخطاب محتواة في النسق العام للنص؛ فالتحليل، إذن، حسبهم،

يكون بدءاً بالبنية اللغوية وبمجموع علاقاتها التي تنظمها، وبهذا يكون النسق الدلالي العام للنص يمثل مجموع الأنساق النصية مع الفكرية، وهذا المفهوم يعزز المبدأ الذي يؤكد من خلاله النقاد العلاقة بين الجزء والكل أو مايسمى بالوحدة العضوية للنص[١٣]، أما الشكلانيون الروس فيميزون بين النسق الأدبي والنسق التاريخي ويذهبون إلى أن النسق الأدبي «يتميز باستقلالية معينة لأنها إرث الأشكال والمعايير الثقافية المتنوعة..»[١٤]، وهذه الاستقلالية عندهم هي التي تسمح بالتفكير في مسألة أدبية النصوص، إذن فالنسق هو مفهوم ينطوي على استقلال ذاتي، يشكل كلاً موحداً، وتقترن آلية بآنية علاقاته التي لاقيمة للأجزاء خارجها والتركيز على أنظمة الشفرات النسقية التي تنزاح فيها الذات عن المركز، وعلى نحو لا تغدو معه للذات أيفعالية فيتشكيل النسق الذي تنتمي إليه، بل تغد ومجرد أداة أو وسيط من وسائطه أو أدواته، ولذلك يرتبط مفهوم (النسق) ارتباطاً وثيقاً في البنيوية بمفهوم الذات المنزاحة عن المركز، و «يمكن أن يتسع مفهوم البنية التي تفسر نسق الخطاب الأدبي، بكل ما يحتويه من بنى وخصوصيات شكلية وجمالية»[١٥].

فالنسق système إذن هو ذلك الكل المتكامل المنظم والمركب الذي يربط بين عناصر وأجزاء ذات خصائص معينة، هذه العناصر والأجزاء تتداخل بعضها مع بعض في علاقات تبادلية مستمرة بالصورة التي لا يمكن بها عزل أحد هذه العناصر أو الأجزاء عن بعضها، مكونة في مجموعها ذلك النسق الذي يوجه ضمن مجموعة من العلاقات التبادلية مع مجموعة أخرى من الأنساق المتصلة به، والتي تكون مجتمعة ما يطلق عليه النسق الأشمل أو الأوسع؛ ومعنى ذلك أن النسق يتكون من أجزاء ذات علاقات أو ذات تعاملات فيما بينها، لذا فإن دراسة أي جزء من أجزاء النسق لا يمكن أن يتم بشكل مستقل عن الأجزاء الأخرى[١٦]، فهو في أبسط معانيه يعني الارتباط حينما تؤثر مجموعة وحدات وظيفية بعضها في بعض، وهو يتكون من

مجموعة من العناصر (أنساق فرعية)؛ التي يرتبط بعضها ببعض، مع وجود مميزات وعلاقة بين كل عنصر وآخر.

ويمكن القول -إجمالاً- إن الاهتمام بمفهوم النسق راجع إلى تحول بؤرة اهتمام التحليل البنيوي عن مفهوم «الذات» أو «الوعي الفردي» من حيث هما مصدر للمعنى إلى التركيز على أنظمة الشفرات النسقية التي تنزاح فيها الذات عن المركز وعلى نحو لا تغدو للذات أي فاعلية في تشكيل النسق الذي تنتمي إليه بل تغدو مجرد أداة أو وسيط من وسائطه وأدواته ولذلك يرتبط مفهوم النسق ارتباطاً وثيقاً في البنيوية بمفهوم الذات المزاحة عن المركز.

ثانياً: في علاقة المصطلح بالعلوم الأخرى

إن للنسق مفهوماً واسعاً واستخدامات مختلفة تكاد تشمل مختلف العلوم، فضمن المنظور الفلسفي نجد أن النسق هو: «مجموعة من العناصر المتداخلة تشكل كلاّ موحداً، والسمة النوعية له هي وجود صلات تَضايُف»[١٧]؛ وهذا يعني أن النسق عبارة عن عناصر متجاورة لها خاصية التبادل بعضها مع بعض، تُشكّل فيما بينها نظاماً موحداً؛ له خاصية التكامل ويعني هذا أيضاً أن «النسق عقلاني، وعقلانيته غير قصدية»[١٨]؛ بمعنى أن المعاني التي يعطيها النسق هي معانٍ واعية تأتي من علاقات التجاور والتماسك بين أجزاء النص، أما علاقة النسق بعلم الاجتماع فهي أوسع وأشمل؛ ففي هذا السياق نجد (لوسيان غولدمان Lucien Goldman) الذي حاول في أبحاثه تحديد العلاقة بين النسق بوصفه بنية فكرية داخل النص والنسق الخارجي بوصفه نظاماً اجتماعياً؛ وإذا عُقدت مقارنة بين النسق الداخلي النصي، والنسق الخارجي الفكري نحصل على تطابق بين النسقيين يسمى النسق

الإيديولوجي، أو ما يصطلح عليه في علم الاجتماع الأدبي بـ (الأنساق النظيرة Système Homologie) أو بـــ (التماثل البنيوي Homologie Structurelle)[١٩]؛ وهذا يعني أن لكل بنية اجتماعية أو اقتصادية أو فكرية في المجتمع ما يماثلها في الإبداع الأدبي، ويماثل هذا تعريف (تالكوت بارسونز Talkout) النسق بأنه «نظام ينطوي على أفراد فاعلين تتحدد علاقاتهم بمواقفهم وأدوارهم التي تنبع من الرموز المشتركة، والمقررة ثقافيا في إطار هذا النسق، وعلى نحو يغدو معه مفهوم النسق أوسع من مفهوم البناء الاجتماعي»[٢٠]، وعلى هذا الأساس فالنسق في علم الاجتماع نظام من القيم مثلما أشار إلى ذلك (بارسونز) بقوله إن «النسق يرتكز على معايير وقيم تشكل مع الفاعلين الآخرين جزءا من بيئة الفاعلين»[٢١].

إن نظرية الأنساق العامة استطاعت أن تقدم الكثير للعلوم الإنسانية على وجه العموم ولعل الخدمة الاجتماعية كانت أحد هذه العلوم أو التخصصات التي استفادت منها وأصبح الكثير من أفكارها ومفاهيمها يشكل جزءاً من مكونات تخصص الخدمة الاجتماعية، ويعود الفضل في تبلورها نظريةً تخدم الممارسة في الخدمة الاجتماعية إلى (هيرن Hearn) في نهاية الخمسينيات من القرن العشرين، وقد استطاعت نظرية الأنساق العامة والنظريات المنشقة عنها أن تتبوأ مكانة عالية بين النظريات التي يتم الاعتماد عليها في مهنة الخدمة الاجتماعية فقد قدمت العديد من المفاهيم التي أصبح من الشائع استخدامها في مهنة الخدمة الاجتماعية كمصطلح نسق المساعدة helping system ونسق العميل client system. وساعدت أيضاً في ظهور نماذج نظرية اعتمدت على معطيات ومفاهيم نظرية الأنساق العامة حيث تمثل نماذج العلاج الأُسري family therapy approaches أحد تلك النماذج النظرية المنبثقة من نظرية الأنساق العامة[٢٢]، وأن استخدام الأنساق في العلوم ممتد الجذور أيضاً في الرياضيات التقليدية، وفي الفيزياء وعلوم الفلك؛ فقد أخذ تحليل الأنساق

تطبيقه الأول مع إسحاق نيوتن في أواخر القرن السابع عشر في تحليله الرياضي لنظام المجموعة الشمسية وقوانين الجاذبية؛ ومفهوم النسق استخدم بشكل واسع في الحقول العلمية؛ إذ نجده قد استخدم في الحقلين الرياضي والبيولوجي وكذا في الحقل التكنولوجي منذ العقود الأخيرة من القرن الماضي، ويؤكد هذا، ماورد في موسوعة (AMERICANA) العلمية عن تحليل الأنساق حيث هو: «دراسة بنية وسلوك المجموعات متفاعلة العناصر، تلك العناصر وذلك التفاعل خلال المجموعات قد يكون على نحو تجريدي، كما هي الحال في التمثيل الرياضي، وقد يكونان مجسّدين كما هي الحال في النظام الشمسي، ونظام الاتصال، أو في نظام تسيير الأعمال»[٢٣]. فتحليل الأنساق إذن هو مفهوم ميزته الأساسية هي التعامل مع القضايا بصورة كلية وفي آن وليس أجزاء أو على مراحل، أما في العلوم الفيزيائية والتكنولوجيا؛ فالتطبيقات متطورة لمنهج تحليل الأنساق، وذلك لتوفر قوانين ومناهج رياضية عامة ومحددة؛ جد متطورة للاستغلال في هذه الحقول، أما مجالات الحاسوب والبحوث الفضائية والتخطيط الحضري والهندسة المعمارية والتلوث البيئي والصحة العمومية وغيرها فقد احتلت فيها مفاهيم الأنساق أهمية كبرى[٢٤].

إن استخدام مفردة النسق يكثر في العلوم الطبيعية والبيئية والإحيائية التي تتميز عناصر مكوناتها بكونها أكثر آلية في حركتها وأكثر اتساقاً وترتيباً systematic من الحقائق أو العناصر أو الأجزاء في العلوم الإنسانية والاجتماعية التي يكون للإنسان دخل في ترتيب عناصرها أو أجزائها الداخلية، واستناداً إلى هذه الحقيقة فإن مفردة النسق تستخدم بكثرة في علوم الإنسان (الانثروبولوجيا) وعلم التبيؤ البشري (الايكولوجيا البشرية)، في الوقت الذي يميل فيه المتخصصون في علوم الاجتماع والسياسة والاقتصاد إلى استخدام لفظة النظام في أطروحاتهم انطلاقاً من حقيقة مركزية ترى أن الظواهر (البيئية والتبيؤية) وعناصر المجتمعات البسيطة والبدائية

التي تتوجه نحوها الدراسات الأنثروبولوجية أكثر اتساقاً (systematic) في بناءات ووظائف عناصرها الداخلية من الظواهر التي يتوجه نحوها علم الاجتماع وغيره.

ثالثاً: في حضور المصطلح في الدراسات النقدية الحديثة

إذا كان النص هو غاية الغايات في النقد الأدبي خصوصاً في مراحله الشكلانية الأخيرة كالبنيوية والأسلوبية والسيميائية فإن النقد الثقافي ينظر إلى النص كمادة خام، بحيث لا يُنظر إليه بمعزل عن الظواهر الأخرى ولا يُقرأ لذاته أو لجمالياته فقط، بل يعامل النص بوصفه حامل نسق وهذا النسق هو الذي يبتغي النقد الثقافي كشفه متوسلاً بالنص في سبيل هذا الكشف، فالنص مجرد وسيلة لاكتشاف حيل الثقافة في تمرير أنساقها، وهذه نقلة نوعية في مهمة العملية النقدية حيث الأنساق هي المراد الوقوف عليها وليس النصوص؛ وبمعنى آخر فإن النقد الثقافي يستخدم أدواته للغوص في لاوعي النص، من أجل الكشف عن المسكوت عنه من الإشكالات الأيديولوجية وأنساق التمثيل وكل ما يمكن تجريده من النص.

وإذا كان (جاكوبسون) قد اكتشف عناصر ستة للأنموذج الاتصالي، هي: المرسل، المرسل إليه و الرسالة، و السياق، والشفرة، وأداة الاتصال؛ فإن (عبد الله الغذامي) يقترح إضافة عنصر سابع هو النسق، لتغدو وظائف الاتصال بعد هذه الإضافة ووفق الترتيب السابق: الوظيفة الذاتية، والوظيفة الإخبارية، و الوظيفة المرجعية، والوظيفة المعجمية، والوظيفة التنبيهية والوظيفة الشعرية وأخيراً: الوظيفة النسقية، وذلك على اعتبار أن كل اتصال إنساني يُضمر دلالات نسقية تؤثر في كل مستويات الاستقبال: في الطريقة التي بها نفهم، والطريقة التي بها نُفسّر.

وبهذا يتميز مصطلح النسق وفق (الغذامي) بطبيعة دلالية تضاف إلى نوعي الدلالة النصية: الدلالة الصريحة، والدلالة الضمنية، وذلك على اعتبار أن الدلالة الصريحة تحملها الجملة النحوية، والدلالة الضمنية تحملها الجملة الأدبية، أما الدلالة النسقية فهي بحاجة إلى جملة ثقافية. وهي الجملة التي تشير إلى تضمن الخطاب مضمرات تتدخل في توجيه الأفكار والسلوك، وتنسخ ظاهر الخطاب وتنقضه. وليست هذه المضمرات كلها من إنتاج المؤلف، بل هي إلى جانب ذلك من إنتاج المتلقي والمجتمع، كما أن هذه المضمرات ليست بالضرورة مقصودة في إنتاجها؛ لأنها في الغالب تكون كامنة في اللاوعي، سواء منه الفردي الخاص بالمؤلف والمتلقي أم الجمعي الكامن في طبيعة الثقافة، وطبيعة علاقات الأمة بالمنتج الثقافي عموماً والمنتج اللغوي على وجه الخصوص.

وبهذا يصبح المؤلف مؤلفين: مؤلف فرد له خصوصية شخصية، ومؤلف آخر ذا كيان رمزي هو الثقافة التي تصوغ بأنساقها المهيمنة وعي المؤلف الفرد ولاوعيه على حد سواء. ويمكن قول مثل هذا في المتلقي، باعتباره متأثراً بهذه الأنساق المهيمنة نفسها، يقول (الغذامي): «ومن ثمّ فإنه يكتسب عندنا قيما دلالية وسمات اصطلاحية خاصة نحددها فيما يلي:يتحدد النسق عبر وظيفته، وليس عبر وجوده المجرد، والوظيفية النسقية لا تحدث إلا في وضع محدد ومقيد، وهذا يكون حينما يتعارض نسقان أو نظامان من أنظمة الخطاب أحدهما ظاهر والآخر مضمر»[٢٥].

وإذا كان النسق الذي هو من إنتاج التاريخ والثقافة هو المقصود من وراء هذه المادة الخام (النص)، فإن مفهوم النص بهذا المعنى لم يعد يقتصر على ما هو مكتوب، أو الذي تعترف به المؤسسة، بل امتد واتسع إلى اعتبار كل الممارسات الإنسانية نصوصاً ذات دلالات ثقافية خصوصاً الشعبي منها والمهمش بشرط أن يحظى

بالانتشار، فـ «النسق إذن يتحقق بوجود ثابت ينغرس في وجدان المجتمع، ويتغلغل داخل ذاكرته، ولم يلبث أن يسيطر عليها، لأنه ينبني من تراكم أثر في العقل الجماعي ثم الانتشار، وهنا يمتلك القدرة على التحكم في ردود الأفعال، ومن ثم السيطرة والهيمنة على الأفراد، ويصبح النسق لا هم له سوى أن يجعل من قيمه أقنعة لأفكار مثالية توهم الذات بأنها السبيل إلى الحياة»[٢٦].

وإذا كان النقد الجمالي لا يلتفت إلى التاريخ، بوصفه أمراً خارج النص، فإن النقد الثقافي يعتبر التاريخ جنساً من أجناس التعبير، وجسداً نصوصياً واستراتيجية قراءة تعين على فهم وتقييم النص المرغوب في تفسيره؛ ذلك لأن النقد الثقافي نظر إلى منتج النص باعتباره بشراً، مثل غيره من الناس، الذين ما زالوا يتعرضون لعملية إخضاع تصوغ طرائق صناعتهم للأحداث، وأهم من ذلك أنها تضعهم في شبكة اجتماعية وفي منظومة علاماتية، تفوق قدرتهم على إدراك فعلها بهم، وتتعالى على سيطرتهم. ولذا لا يكون التاريخ مجرد حقائق وأحداث تقع خارج النص، بل هو علاماتية ألسنية تجعل كل شيء خارج النص مؤثراً في تلقي النص وإنتاجه.

إذن فالنص في النقد الثقافي ليس معزولاً عن علاقات إنتاجه (التاريخية)، ولا عن نسقه التأثيري (مضمرات الخطاب): فهو فعل إنساني تاريخي متأثر بالمجتمع، ومؤثر فيه. الأمر الذي يتيح لنا القول بأن علاقة النص في النقد الثقافي بالمجتمع، هي علاقة ديناميكية منتِجة ومنتَجة في آنٍ: فالنص يشارك في إنتاجه المجتمع، ويشارك هو في إعادة إنتاج المجتمع (القيم والسلوكيات)[٢٧]، وهذا يقتضي إجرائيا أن نقرأ النصوص والأنساق التي تلك صفتها قراءة خاصة...، وبما أنه كذلك فإن الدلالة النسقية فيه سوف تكون هي الأصل النظري للكشف والتأويل، مع التسليم بوجود الدلالات الأخرى، الصريح منها والضمني، والتسليم بالقيمة الفنية وغيرها من

القيم النصوصية التي لا تلغيها الدلالة النسقية، وليست بديلا عنها، و «يتخذ النسق (الأصالة) و (القيم) و(التقاليد) لعبة تشويش على الذات ومرجعيتها، فنجد أنفسنا أمام (خرافة) أو (أكذوبة) تسعى إلى تكسير الوعي بالذات وزعزعة ثقتها في إمكانياتها وقدراتها وإلا كيف نتقبل خطابا يتضمن الهيمنة ويدعو إلى عبودية الفرد وينطوي على فردية مطلقة»[٢٨]، ولذا «تبدو الذات في النسق مفتتة، لا تعي هويتها الفردية، لأنها في أثناء بحثها عن هويتها الفردية تصطدم بشبكة الأطر والمعارف الجماعية، فتتأرجح بين الانتماء إلى النسق، أو الانتماء إلى الذات، نسق داخلي: التنظيم الذاتي الذي يشتمل عليه الأثر إلى جانب التفاعلات الموجهة نحو وحداته الذاتية، أي التنظيم الذي ينطوي على اتجاهات وعلاقات الوحدات الشكلية أو اللغوية وعلاقات هذه الوحدات ببعضها ببعض»[٢٩]، وبحسب ما تقدم يمكن تقسيمه إلى نسق خارجي، ونسق أدبي، ثم أخيرا نسق المعرفة؛ فـ «النسق الخارجي نسق كلي يتألف من الأنشطة والمشاعر والتفاعلات الثقافية والفكرية، يوجه نحو البيئة الخارجية، فالنسق الخارجي للأثر الأدبي هو بنية الوسط الذي ظهر فيه، والذي يتلقى منه عدد المؤشرات المباشرة وغير المباشرة وتظهر في طريقة تصوير النص للعالم الخارجي»[٣٠]، أما النسق الأدبي فهو: «نموذج نظري لأدب معين يتألف من أجزاء مترابطة ويستعمل هذا المصطلح في أغلب الأحيان من قبل المدرسة الشكلية (البنيوية) للتعبير عن وجود تساند وظيفي لأجزاء الأثر الأدبي أو الفكري أو الفلسفي»[٣١]، وأخيراً نسق المعرفة الذي يعرف بأنه «مجموعة معارف مترابطة يتمسك بها (الناقد) تتعلق بأثر أدبي معين أو آثار أدبية أو فئة من الموضوعات»[٣٢].

مما سبق نستنتج أن النسق بين الظاهر والخفي يحمل معه دلالات عدة تحت غطاء جمالية اللغة، لذلك نحكم أنه خطير من هذه الناحية، وإلا كيف نقتنع بجمالية نص مثلاً يحمل أفكاراً مناقضة لتوجهاتنا ونحكم عليه بالجمالية من خلال الأسلوب،

النسق له فاعلية التأثير بما يحمله من دلالات وسياسة الإقناع سواء كان الفكر إيجابيا أم سلبياً، وسواء كان ظاهراً أم خفياً.

رابعاً: بين البنية والنسق

إن الاهتمام بمفهوم النسق في الدراسات البنيوية يعود إلى «تحول اهتمام التحليل البنيوي عن مفهوم الذات، أو الوعي الفردي من حيث هما مصدر للمعنى، إلى التركيز على أنظمة الشفرات النسقية التي تنزاح فيها الذات عن المركز، وعلى نحو لا تغدو معه للذات أي فاعلية في تشكيل النسق الذي تنتمي إليه، بل تغدو مجرد أداة، ووسيط من وسائطه وأدواته»[٣٣] ونستطيع القول إن البنيوية هي منهج يسعى إلى دراسة النص من حيث هو مجموعة من العناصر المتآلفة فيما بينها دراسة شكلية تهدف إلى تفسير بنيته، وتوضيح المظاهر الفنية والجمالية؛ فـ (جان بياجه) يقدم لنا تعريفًا للبنية[٣٤] باعتبارها نسقًا[٣٥] من التحولات: «يحتوي على قوانينهِ الخاصةِ، علمًا بأنَّ من شأنِ هذا النسقِ أن يظلَّ قائمًا ويزدادَ ثراءً بفضلِ الدور الذي تقومُ به هذه التحولاتُ نفسُها، دون أن يكونَ من شأنِ هذه التحولات أن تخرجَ عن حدودِ ذلك النسقِ أو أن تستعينَ بعناصرَ خارجية، وبإيجاز فالبنيةُ تتألفُ من ثلاثِ خصائصَ هي: الكليةُ والتحولاتُ والضبط الذاتي»[٣٦]، ويمكن أن يتسع مفهوم البنية التي تفسر نسق الخطاب الأدبي، بكل ما يحتويه من بني وخصوصيات شكلية وجمالية[٣٧]. إنّ (دوسوسير) لم يستخدم كلمة بنية وإنما استخدم كلمة نسق أو منظومة بالمعنى نفسه وقد ركز بحثه على تحليل اللغة في بعدها العام (Système) الجمعي باعتبارها نسقاً مكتفياً بنفسه وقد سعى إلى بنيوية ذات نظام لغوي متزامن حيث إن سياق اللغة لا يقتصر على التطورية بل بتعلق المعاني بعضها ببعض لتؤلف نظاماً متزامناً Diachronisme حيث إن هذه العلاقات مترابطة، وكان اهتمامه على

القواعد بدلاً من التعبيرات وعلى النحو بدلاً من الاستعمال والنماذج بدلاً من المعطيات والفكرة بدلاً من الأداء ولكي يتم تشييد نسق لغوي وآلي تطلب ذلك تعليق التطور التاريخي للغة ودراسة عناصرها المتزامنة في لحظة معطاة والمتعاقب Synchronique فالثنائية المهمة هي التضاد بين المتزامن في دراسة النسق، وتعتبر البنيوية اللغ أنموذجاً أساسياً لكل أنظمة الدلالة ليس بسبب طبيعة العلامة والنسق فحسب؛ بل لأن الذهن الإنساني ووراءه الكون كله يشتركان في بنية واحدة هي بنية اللغة، فالنص إذن خاضع «لتوجه مزدوج،نحو النسق الدال الذي ينتج ضمنه لسان ولغة مرحلة ومجتمع محدَدين، ونحو السيرورة الاجتماعية...».

إن هذه الحالة وهذه الممارسة للغة في النص تخلصه من كل تبعية لبرانية ميتافيزيقية ما ولوكانت مقصودة، وبالتالي ومن كل نزعة تعبيرية ومن كل غائية وهو مايعني أيضا التخلص من التطورية، ومن الإلحاق الاستعمالي للنص بتاريخ من دون لسان[٣٨]، فشكلت البنية عند (دوسوسير) مفهوما جوهريا يتمثل في معنى النسق يعني به شيئا قريبا جداً من مفهوم البنية حيث يمكن القول إن الاهتمام بمفهوم النسق راجع إلى تحول بؤرة اهتمام التحليل البنيوي عن مفهوم الذات أو الوعي الفردي من حيث هما مصدر للمعنى، ولهذا ركز (دوسوسير) على أمرين مهمين؛ أولهما الإلزام التزامني للغة حال التلفظ بها وعدم الالتفات إلى تاريخيتها حين خرج بالدراسات اللغوية من هيمنة النظرة التاريخية التعاقبية التي تتبع الظاهرة اللغوية في تطورها التاريخي إلى شمولية النظرة التزامنية أو التوقيتية للغة حيث تتناول جميع المظاهر التي تتصل بأوضاع النظم اللغوية من الوجهة الوصفية وتثبت اللغة في لحظة زمنية لتدرس علاقات أجزائها، ومن ثم يعرف نظامها الحاكم لتطورها ولقواعدها ولبنائها.

أما الأمر الآخر فهو البحث عن العلاقات الكلية التي تترابط بها الأجزاء، دون النظر نحو جزيئات تاريخية بل يكون السعي نحو معرفة النظام الأكبر الذي يأخذ كل الأجزاء لتتجمع فيه كما أنه لاحكم بقيمة ماعلى أي خطاب بشري من خلال طبيعته الذاتية وإنما في كيفية تركيب عناصره من علاقات توافقية وتخالفية؛ ومنه فقد بحث عن وجود جمعي للغة، فأوقفت تابعها على المحور التاريخي من أجل إجلاء كامنها الأساس خلال المحور التزامني وتبيين قيمتها كونها داخلية في علاقات تثبت لها مجموعة صفات أو هوية تفقدها فور خروجها من نسقها الحاكم لتصبح حرة في دخول أي نسق آخر طالما امتلكت قدرة إقامة علاقات مرغوبة مع عناصره، فباللغة نعرف العالم و بها نبنيه ومانعرفه نحدده باللغة ومن ثم هي الأساس الفاعل المنتج؛ فهي «نظام من الرموز المختلفة التي تشير إلى أفكار مختلفة وهي مجموعة المصطلحات التي تتخذها هيئة المجتمع بأكمله لإتاحة الفرصة أمام الأفراد لممارسة ملكاتهم»[٣٩].

وحين يُعرف (زكريا إبراهيم) مفهوم البنية في كتابه (مشكلة البنية)[٤٠] يقول بأنها «نظام أو نسق من المعقولية»، فهي (صورة) الشيء، و(هيكله)، و(القانون) الذي يفسر تكوينه والفرنسي (جان بياجيه)، الذي جعل للبنية ثلاث خصائص لا بد أن تتسم بها: هي الكلية فتتكون البنية من عناصر داخلية خاضعة لقوانين النسق. والتحول؛ وهو سلسلة من التغيرات الباطنة تحدث داخل النسق، والتنظيم الذاتي؛ فتنظم البنية نفسها لتحفظ لها وحدتها، وتساهم في طول بقائها[٤١]، يقول (جان بياجيه) إن البنية «هي نسق من التحولات له قوانينه الخاصة باعتباره نسقاً» وإن هذه البنية تتسم بخصائص ثلاث: الكلية، والتحولات، والتنظيم الذاتي فالكلية هي تكوين البنية من عناصر داخلية خاضعة للقوانين المميزة للنسق، وليس المهم في البنية هو (العنصر) أو (الكل) الذي يفرض نفسه على العناصر، وإنما هو (العلاقات) القائمة بين هذه العناصر، أو عمليات تكوين (الكل) باعتبار هذا (الكل) مكوناً من

تلك العناصر التي تحكمها علاقات و(التحولات) تعني أن هذا (الكل) ينطوي على دينامية ذاتية تتألف من سلسلة من التغيرات الباطنية التي تحدث داخل (النسق) أو(المنظومة)؛ خاضعة في الوقت نفسه لقوانين (البنية) الداخلية، والتنظيم الذاتي هو أنه في وسع هذه (البنيات) تنظيم نفسها بنفسها، مما يحفظ لها وحدتها، ويكفل لها المحافظة على بقائها، ويحقق لها نوعاً من (الانغلاق الذاتي)؛ لكن هذا الانغلاق لا يمنع (البنية) الواحدة من أن تندرج تحت (بنية) أخرى أوسع. ويمكن تحديد خصائص النسق وفق ما سبق على النحو الآتي[٤٢]:

١. كل نسق يتكون من عناصر مشتركة، أومختلفة بينها علاقة.
٢. له حدود مستقرة ومجال معروف(كالنص الشعري مثلاً).
٣. له بنية داخلية مجردة.

فإذن يكتسب مفهوم النسق قيمته داخل البنية في علاقته ببقيّة العناصر أو بموقعه في شبكة العلاقات التي تنتظم العناصر، والتي بها تنهض البنية فتنتج نسقها؛ فالعنصر لا قيمة لوجوده مفرداً، وإنما في سياق علاقات المنظومة الأدبية كلها.

خامساً: محاولة لإيجاد مفهوم للنسق الشعري

ترتكز فكرة النسق على الحصر الشمولي للظاهرة بالتركيز على طبيعة العلاقات المتبادلة بين عناصرها من أجل الوصول إلى هدف محدد ومن تعريف (روزاني Rosnay) للنسق بأنه: «مجموعة من العناصر في تفاعل دينامي بينها، منظمة قصد بلوغ هدف»[٤٣] يتبين لنا جوهر مكونات النسق ودور العلاقات بين العناصر في بلوغ الهدف، ويساعدنا على تعيين العناصر داخل الظاهرة؛ تلك العناصر المترابطة، والمتفاعلة باستمرار، لتعرف موقع كل عنصر داخل النسق، إضافة إلى أن هذه

العناصر يجمعها ويربطها قانون للمحافظة على التوازن الداخلي للوصول إلى الهدف الذي يسعى النسق لتحقيقه، ومن هنا سوف نحاول إيجاد مقاربة معرفية لمفهوم النسق الشعري بالعودة إلى مفاهيم هذا المصطلح في العلوم الأخرى وبخاصة علم النفس وعلم الاجتماع باعتبارهما الأسبق في فهم مفهوم النسق وتطبيقه.

أ: مفهوم النسق الشعري:

إن النسق الشعري poïétiquesystème هو مجموعة مترابطة ومنظمة ومتكاملة من الطرق والوسائل والأدوات والأساليب التي تقوم جميعها من خلال علاقاتها التبادلية بالمهام اللازمة لتحقيق البناء الشعري المتكامل (لغة، صورة، إيقاع، دلالة)، فهو وحدة تتكون من أجزاء أو وحدات متباينة ومتماسكة معاً(أنساق صغرى)، وكل وحدة معتمدة على الوحدات الأخرى، ومجموع الكل أكبر من الأجزاء المكونة له وأن له خصائصه التي تميزه من خصائص الأجزاء المكونة له، فالارتباط القائم بين الأجزاء يتولد عنه خصائص تختلف عن خصائص الأجزاء الأساسية؛ واللغة الشعرية مثال على ذلك، إذ إنّ اللغة كنسق تختلف خصائصها عن خصائص العناصر المكونة لها، وكذلك الصورة الشعرية تختلف عن العناصر المكونة لها؛ لو تم تحليل كل عنصر على أنه نسق قائم بذاته، وإن أن أي تغيير يطرأ في أي جزء من أجزاء النسق يؤثر في بقية أجزاء النسق وعلى النسق كله، وكذلك أن لكل نسق إطارا مرجعياً محدداً يحدد ماهيته داخل النسق الأكبر لأن «القصيدة عمل منسجم يقوم على تفاعل عناصره المكونة للقصيدة، فالمضمون لا يقوم إلا في اللغة في الدلالات التي تقدمها العلاقات في القصيدة، بمعنى الدلالات القائمة في هذا البناء الذي هو بناء متميز»[٤٤]، والنسق العام يضم كذلك أنساقاً فرعية وكل نسق من هذه الأنساق الفرعية لابد أن تكون له حدوده الواضحة والدقيقة التي تحدد مهامه وأنشطته.

وكما بيننا سابقا فإن البنية (Structure) يتسع مفهومها ليشمل الدلالة، يقول (محمد اليوسفي) وهو يوضح مصطلح البنية: سوف «نستعمل مصطلح البنية أو الشكل، ولا نعني به ما يسمى في الخطاب النقدي المتعارف بالمبنى الخارجي، وإنما نعني النص الشعري بكل أبعاده؛ أي لغته وحركاته ونظام علاقاته وأزمنته والرؤية التي يطرحها»[٤٥]، فالبنية والمضمون تتشابك وتتمازج في النص بحيث يكون من الصعب الحديث عن البنية دون أن يكون للدلالة والمضمون انبثاق في الحديث فالنسق الشعري يقوم على تفاعل العناصر المكونة للقصيدة، وكلما كانت الحدود واضحة أدى ذلك إلى مزيد من التخصصية بين أجزاء النسق الواحد.

ب: خصائص النسق:

العناصر المكونة للنسق ذات تنظيم معين وتراتب تفاعلي فيما بينها ويمكن تحديد بنية النسق على النحو الآتي[٤٦]:

١. إن كل عناصر النسق ذات ترتيب معين.

٢. إن العناصر متبادلة التفاعل.

بما أن البنية هي ذلك النسق المتكامل الذي يتألف من أصوات وكلمات، ورموز، وصور وموسيقى، ولذلك قيل «التحليل البنيوي يحمل مدلولا مكثفا ومعقدا»[٤٧]؛ من خلال كشف العلاقة المتفاعلة القائمة بين داخل الظاهرة، وخارجها أو الشكل والمضمون اللذين يشكلان أساس التحليل النصي ولتوضيح علاقاتها لمتشابكة بسائر الأنساق الثقافية والفكرية، وبما أننا ذكرنا سابقا[٤٨] أن مفهوم النسق مفهوم جزئي من مفاهيم البنية بصفة عامة؛ ومن هنا فإن خصائص الأول هي تقريبا خصائص الثانية.

وإذا كانت البنيوية قد تعاملت مع النص الأدبي من الداخل وتجاوزت المرجعية باعتباره نسقا لغويا داخليا في سكون هو ثباته، ودرسته في مستويات عدة كالمستوى الصرفي والمستوى الدلالي والمستوى التركيبي، والخطاب الشعري حاولت مقاربته مقاربة موضوعية اعتمادا على اللغة ومفاهيمها المجردة من كل ذاتية، إلا أن إقصاءها للتاريخ وذاتية المبدع والمرجع الخارجي و تهميشها لدور الذوق هو إقصاء لأساسيات تقويم النص وتذوق جماله واستكناه متعته الحقيقية، وأن النص عندها يكشف عن بنية محددة وعن نسق أو مجموعة أنساق وأنظمة وعن طريق القراءة البنيوية يكون التوصل إلى أسرار النص الداخلية في بنياته وعلاقات أنظمته وأنساقه، من هنا فإن خصائصِ البنيةِ هي نفسها خصائص النسق، وهي كما أشار إليها (جان بياجه) في تعريفهِ ثلاثُ خصائصَ هي[٤٩]:

أ: الكلية أو الشمول:

وتُعني هذه السمة خضوع العناصر التي تُشكِّل النسق لقوانين تُميّز المجموعة كمجموعة، أو الكل ككل واحد، فالنصُّ الأدبي مثلا هو بنية تتكونُ من عناصر، وهذه العناصر تخضعُ لقوانين تركيبيةٍ تتعدى دورَها من حيث هي روابط تراكمية تشد أجزاء الكيان الأدبي بعضه إلى بعض، فهي تُضفي على الكلِّ خصائصَ مغايرةً لخصائصِ العناصرِ التي يتألف منها البعض[٥٠]، كما أن هذه الخاصية تُبرزُ لنا أنَّ البنية لا تتألف من عناصرَ خارجية تراكمية مستقلة عن الكل، بل هي تتكونُ من عناصرَ خارجية خاضعة للقوانين المميزةِ للنسق، وليس المهمُّ في النسق العنصر أو الكل بل العلاقات القائمة بين هذه العناصر.

ب: التحولات:

أما عن خاصيةِ التحولات، فإنها توضح القانون الداخلي للتغيراتِ داخل النسق التي لا يمكن أن تظل في حالةِ ثبات؛ لأنها دائمة التحول، وتأكيدا لذلك فإنَّ كل نص يحتوي ضمنيًا على نشاطٍ داخلي، يجعل من كل عنصر فيه عُنصرا بانيًا لغيرهِ ومبنيًّا في الوقت ذاته، ولهذا فقد أخذت البنيوية هذه السمةَ بعينِ الاعتبارِ لتُحاصر تحوّل البنية وما قد يعتريها من بعض التغيير(٥١).

إنّ هذه السمةَ تُعبر عن حقيقة مهمة في البنيويةِ، وهي أنَّ البنية لا يمكن أن تظل في حالةِ سكون مطلق، بل هي دائما تقبلُ من التغيّرات ما يتضمن مع الحاجات التي تحددها علاقات النسقِ أو تعارضاته، فالأفكارُ التي يحتويها النصُ الأدبيُ مثلاً تُصبح بموجبِ هذا التحولِ سببًا لبزوغِ أفكارٍ جديدة(٥٢).

ج: التنظيم الذاتي:

أما عن خاصية التنظيم الذاتي، فإنها تمكّن النسق من تنظيم نفسه كي يحافظ على وَحدته واستمراريته؛ وذلك بخضوعِه لقوانينِ الكل، وهذا يحقق له نوعًا من الانقلاب الذاتي ونُعني به أن تحولاتِه الداخلية لا تقود إلى أبعد من حدوده، وإنّما تُولّد دائمًا عناصر تنتمي إلى البنيةِ نفسها، وعلى الرغم من انغلاقه؛ فهذا لا يعني أن يندرج ضمن بنية أخرى أوسعَ منه، دون أن يفقد خواصه الذاتية(٥٣)، ولذا فـ (شتراوس) يحددُ البنيةَ بأنها «نسقٌ يتألف من عناصرَ يكون من شأن أي تحول يعرض للواحد منها أن يُحدث تحولا في باقي العناصر الأخرى»(٥٤). فالعلاقةِ بين الجزء والكل في نظرِ البنيويين، ليست مجرّد اجتماعِ مجموعة من العناصر المستقلة، بل إن هذه العناصر تخضع لقوانين تتحكّم في بناء العلاقة التي تجمع الأجزاء، وتُضفي

هذه القوانين على البنية سماتٍ كليّة تختلف عن سماتِ العناصرِ كل منها على حدةٍ، وتتميز من مجموع هذه العناصر، فالبنيوية ترى بأن كل الأشياء تشتمل على أنساق من الترابط بين أجزائها، وهذا هو المهم بالنسبة له.

فالعناصر داخل النسق تقوم بمهام متباينة، وما يميز هذه المهام هو عدم تعارضها، فهي تسعى لتنظيم البناء الداخلي للنسق حتى يتم التفاعل بينها، فالخطاب الشعري كنسق يحتوي على عناصر تكونه وتنظم اتساقه، وهي: اللغة، الإيقاع، الصورة؛ حيث تقوم هذه العناصر كلها[٥٥]؛ بأدوار مختلفة تتجه جميعا نحو تحقيق هدف معين هو تشكيل النص الشعري؛ الذي يكونُ مبثوثا في العلاقات التي تربط العناصر المكونة بعضها ببعض، ومن ثمَّ لا ينبغي الوقوف عند عنصر بمعزل عن الآخر فالتجربة الجمالية تتألف من أجزاء لا تحمل قيمتها في ذاتها منفصلة بعضها عن بعض وإنما في علاقاتها بعضها ببعض وهو ما يشكل وحدة عضوية أو الكل العضوي، فمعنى الجزء منفصل هو غيره في حال تفاعله مع العناصر الأخرى، ذلك أن كل عنصر من عناصر التجربة الجمالية يتلون بلون جميع العناصر الأخرى[٥٦]، والشكل الآتي يوضح هذا:

شكل (١)

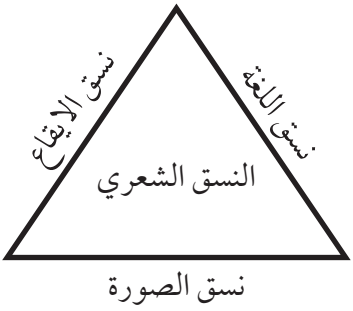

فالنص الأدبي بصفة عامة يوصف بأنه نسق عام يتولد عنه نسق شعري ونسق نثري وغيرهما، وهذه الأنساق في علاقتها بعضها ببعض مستقلة ومتفاعلة، لكن إذا ذهبنا إلى النسق الشعري مثلا فأننا نجده يتكون من أنساق فرعية داخلية تتفاعل وتتداخل بينها، أما الإطار الذي يحيط بالنسق (في النص الشعري؛ مثلا بيئة الشاعر، نفسيته ...) فيتبادل معه التأثير والتأثر.

وهذه الأنساق الثلاثة متبادلة التفاعل فيما بينها؛ عن طريق محددات الأنساق الفرعية لكل مجموعة مواضيع؛ فتفاعل نسق اللغة ونسق الإيقاع مثلا؛ المقصود به تنظيم الكلمات وطريقة تأليفها؛ بمعنى صياغة لغوية ضمن قوالب إيقاعية محددة عن طريق آلية وضع اللغة وفق نسق إيقاعي معين؛ فقدنظرالنقادإليالوزنعليأنهعنصر مهم منعناصرالشعر ودعامةأساسيةمندعائمه، فهو «إبراز أو إحداث لفجوة حادة في طبيعة اللغة، خلقٌ لمسافة توتر عميقة بين المكونات اللغوية العائمة في وجودها العادي خارج الشعر ووجودها داخله»[٥٧]، وإن هذا الوجود داخل الشعر هو الذي يمنح هذه المكونات تميزها ومن ثم شعريتها فالوزن بما يشكله من التمايز والمغايرة على صعيد الانتظام في بنيته الصوتية يمنح النص شعريته ويُديم علاقة وجودية بين الشعر والوزن[٥٨]، مما ينتج عنه ثلاثة أنواع من الأشكال: شكل تقليدي (لغة + نظام عروضي عمودي)، شكل تجديدي (لغة + نظام عروضي تفعيلي)، شكل حداثي (لغة + نظام نثري).

أما تفاعل نسق اللغة ونسق الصورة فالمقصود به طريقة تشكيل اللغة والصورة، بعد أن تأخذ طريقة انتظامها وتشابكها في ذاكرة الشاعر ومخيلته، مما ينتج عنها أنساق مواضيع مختلفة تنتج عن مجموعة صور، تنتج كل صورة أو مجموعة صور موضوعا معينا وهو ما يمكن أن نسميه الأنساق الفرعية المتولدة عن النسق الرئيس.

أما التفاعل بين الإيقاع والصورة فينتج لنا المعاني المتولدة عن المتخيل الشعري، أو ما يسمى الدلالة، وهذه العلاقة المتولدة من شعرية النص، وموسيقاه هي علاقة تكاملية نابعة من طبيعة العمل نفسه وانفعالات المنشئ ومن ثم توجهات المتلقي التي تصنع مناطق عديدة للاستجابة مع النص؛ لأن تجربة الشاعر وإحساسه ومرجعيته الثقافية لها دور كبير في بناء موسيقى شعره واختيارها، مثلما كان لها الدور في اختياره لصوره الشعرية وهذه من أهم نقاط الالتقاء بين الإيقاع والصورة فضلاً عن كونهما رافدين من روافد شعرية النص فالشاعر وهو يجوس متاهات لاوعيه «يصبح حين تعتريه لُجَجُ الحالة الشعرية مشحون الذهن بالموسيقى غائصاً في أعماق عدم الوعي بحيث تندمج اللغة في عقله غير الواعي فترفع إلى سطحه عشرات الكلمات المطموسة الأصداء مما رقد قروناً في الذهن الجماعي للأمة»[٥٩]، فالصورة والإيقاع الشعريان إذاً يكمل أحدهما الآخر في عملية صنع العمل الأدبي الذي يكون المعنى جزءاً منه.

... الخاتمة ...

نصل إلى الاستنتاج مما سبق أن فكرة النسق ترتكز على الحصر الشمولي للظاهرة بالتركيز على طبيعة العلاقات المتبادلة بين عناصرها من أجل الوصول إلى هدف محدد وان مفهوم النسق يكتسب قيمته داخل البنية في علاقته ببقيّة العناصر أو بموقعه في شبكة العلاقات التي تنتظم العناصر، والتي بها تنهض البنية فتنتج نسقها؛ فالعنصر لا قيمة لوجوده مفرداً، وإنما في سياق علاقات المنظومة الأدبية كلها، وقد توصلنا إلى أن النسق الشعري poïétiquesystème هو مجموعة مترابطة ومنظمة ومتكاملة من الطرق والوسائل والأدوات والأساليب التي تقوم جميعها من خلال علاقاتها التبادلية بالمهام اللازمة لتحقيق البناء الشعري المتكامل (لغة وصورة وإيقاع ودلالة)، فهو وحدة تتكون من أجزاء أو وحدات متباينة ومتماسكة معاً (أنساق صغرى)، وكل وحدة معتمدة على الوحدات الأخرى، ومجموع الكل أكبر من الأجزاء المكونة له وأن له خصائصه التي تميزه عن خصائص الأجزاء المكونة له وأن فالنص الأدبي بصفة عامة يوصف بأنه نسق عام يتولد عنه نسق شعري ونسق نثري وغيرهما، وأن العناصر المكونة للنسق ذات تنظيم معين وتراتب تفاعلي فيما بينها ويمكن تحديد بنية النسق بأن كل عناصر النسق ذات ترتيب معين،وأن العناصر متبادلة التفاعل.

وهذه الأنساق في علاقتها بعضها ببعض مستقلة ومتفاعلة، لكن إذا ذهبنا إلى النسق الشعري مثلا فأننا نجده يتكون من أنساق فرعية داخلية تتفاعل وتتداخل بينها، أما الإطار الذي يحيط بالنسق (في النص الشعري؛ مثلا بيئة الشاعر، نفسيته...) فيتبادل معه التأثير والتأثر، وهذه الأنساق الثلاثة متبادلة التفاعل فيما

بينها؛ عن طريق محددات الأنساق الفرعية لكل مجموعة مواضيع،والنسق الشعري يقوم على تفاعل العناصر المكونة للقصيدة، وكلما كانت الحدود واضحة أدى ذلك إلى مزيد من التخصصية بين أجزاء النسق الواحد.

---

١. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ط، ٢٠٠٣، مجلد١٤، مادة نسق، ص١٦٥.
٢. الفيروز أبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٨، ج٣، مادة نسق، ٢٠٠٥، ص٢٨٥.
٣. ابن فارس أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا ، مقاييس اللغة، دار صادر، بيروت ، ط٥، ١٩٩٩، المجلّد الخامس ص٤٢٠.
٤. محمد عالي خنفر، نسقية الشعر العربي، أطروحة دكتوراه، إشراف محمد السرغيني، جامعة الحسن الثاني المحمدية، الدار البيضاء، المغرب، ج١، السنة الجامعية ٢٠٠٠ - ٢٠٠١، ص٤٤٠.
٥. عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، ط٢، ٢٠٠١، لبنان، بيروت، ص٧٦.
٦. قاموس أطلس إنجليزي عربي، دار أطلس للطباعة والنشر، ط. ١، ٢٠٠٣، مادة system.
٧. سهيل إدريس، المنهل قاموس فرنسي عربي، دار الآداب، بيروت، ط ٢٠٠٦، مادة Système.
٨. نقلاً عن: محمد الأمين بن الناتي، أطروحة دكتوراه، الثقافة الشنقيطية مقاربة نسقية، إشراف د. محمد مفتاح، جامعة محمد الخامس، الرباط، المغرب، السنة الجامعية ٢٠٠٧ - ٢٠٠٨، ص٢٦.
٩. جمال بن حمدان، الأنساق الذهنية في الخطاب الشعري، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، المغرب، ط١، ٢٠٠٩، ص١٥٤.
١٠. كمال أبو ديب، جدلية الخفاء والتجلي دراسات بنيوية في الشعر، دار العلم للملايين، بيروت، د.ط، د.ت، ص١٠٨.
١١. عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة من البنية إلى التفكيك، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، العدد٢٥٢، سنة١٩٩٧، ص١٨٤.
١٢. سعيد الغانمي وآخرون، معرفة الآخر مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، ص٤٠.
١٣. ينظر: عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة-من البنية إلى التفكيك، ص١٨٦.

١٤. مجموعة مؤلفين، مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، ترجمة رضوان ظاظا، سلسلة عالم المعرفة، الكويت ، عدد٢٢١، ١٩٩٧، ص٢١٤.
١٥. فتحي بوخالفة، التجربة الروائية المغاربية دراسة في الفاعليات النصية وآليات القراءة، عالم الكتب الحديث، ط١،أربد، الأردن، ٢٠١٠،ص٥٦٨.
١٦. إبراهيم مجدي عزيز، موسوعة التدريس، ج١، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان، ٢٠٠٤ ، ص٢٦.
١٧. روزنتال.م.يودين.ي، الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٧٤، ص٥٢٦.
١٨. عمر مهيبل، من النسق إلى الذات قراءة في الفكر الغربي المعاصر، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠٠٠ ، ص٦٦.
١٩. بيير زيما، النقد الاجتماعي نحو علم اجتماع النص الأدبي، ترجمة عايدة لطفي، دار الفكر، القاهرة، ط١، ١٩٩١، ص٥٣.
٢٠. إديث كريز ويل،عصر البنيوية، ترجمة جابر عصفور،دار سعاد الصباح ، الكويت، ط١، ١٩٩٣، ص٤١١.
٢١. نقلا عن: إيان كريب، النظرية الاجتماعية من بارسونز غلى هامبرماس، ترجمة محمد حسين غلوم ومراجعة محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد ٢٤٤، ١٩٩٩، ص٧١.
٢٢. معن خليل عمر، معجم علم الاجتماع المعاصر، دار الشروق، عمان ٢٠٠٦، ص٣٨٦.
٢٣. The Encyclopédia Americanain 1829, Grolier Incorporated, Volime26, International Edition, First published. Systems Analysis, pp 198-199.
٢٤. Ibid,Systems Analysis,pp 198-199.
٢٥. عبد الله الغذامي، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، ص٧٧.
٢٦. عبد الفتاح أحمد يوسف، قراءة النص وسؤال الثقافة، استبداد الثقافة ووعي القارئ بتحولات المعنى، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن ٢٠٠٩، ص٧٩.
٢٧. عبد الله الغذامي، النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية، ص٧٧.
٢٨. عبد الفتاح أحمد يوسف، قراءة النص وسؤال الثقافة، ص٧٩.
٢٩. سمير سعيد حجازي، النظرية الأدبية ومصطلحاتها الحديثة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٤، ص١١٣.
٣٠. المرجع السابق، ص١١٠.
٣١. المرجع السابق ، ص١١٧.

٣٢. نفسه، ص١١٨.
٣٣. إديث كريز ويل، عصر البنيوية، ص٤١٥.
٣٤. حول تعريف جان بياجه للبينة وخصائصها يراجع: جان بياجه، البنيوية، ترجمة: عارف منيمنه وبشير أوبري، منشورات عويدات، بيروت، ط٤، ١٩٨٥م، ص٨، و زكريا إبراهيم، المرجع السابق، ص٣، وصلاح فضل، النظرية البنائية في النقد الأدبي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط٢، ١٩٨٠م، ص١٨٧ ، وعز الدين المناصرة، علم الشعريات (قراءة مونتاجية في أدبية الأدب)، دار مجلاوي، عمان، ط١، ٢٠٠٧م، ص٤٧٥.
٣٥. النسق عند البنيويين: هو نظام ينطوي على استقلال ذاتي، يُشكِّل كُلاً موحّدًا. انظر: إديث كريزويل، عصر البنيوية، ترجمة: جابر عصفور (مسرد المصطلحات، ص٤١٥) ، كما وضّح روبرت شولز مسألة تركيز البنيوي على النسق، انظر: روبرت شولز، البنيوية في الأدب، ترجمة: حنا عبود، اتحاد الكتاب العرب ١٩٧٧م .
٣٦. انظر: جان بياجه، البنيوية، ص ٨.
٣٧. فتحي بوخالفة، التجربة الروائية المغاربية، دراسة في الفاعليات النصية وآليات القراءة، ص٥٦٨.
٣٨. جوليا كريستيفا، علم النص، ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، المغرب، ص ٩.
٣٩. صلاح فضل، نظريةالبنائية في النقد الأدبي، دارالشروق، ط١، ١٩٩٨، ص٢٠.
٤٠. زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، مكتبة مصر، القاهرة ١٩٧٦، ص٣٥.
٤١. انظر: جان بياجيه، البنيوية ، ص٨.
٤٢. ينظر: محمد مفتاح، التشابه والاختلاف، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٦، ص١٥٦.
٤٣. Rosnay, le macroscope vers une vision global, point du seuil, 1975,p.83
٤٤. فاتح علاق، مفهوم الشعر عند رواد الشعر الحر، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠٥، ص١٨٩.
٤٥. محمد لطفي اليوسفي، في بنية الشعر العربي المعاصر، دار سراس للنشر، تونس ١٩٨٥، ص١٦.
٤٦. حاولنا إيجاد مقاربة لهذا المفهوم بالاعتماد على نظرية الأنساق في علمي النفس والاجتماع، ينظر في هذا: الطاهر بوغازي، القيم التربوية مقاربة نسقية، دار الحبر، الجزائر، ط١، ٢٠١٠، ونيكلاس لومان، مدخل إلى نظرية الأنساق، ترجمة يوسف فهمي حجازي، منشورات الجمل، ألمانيا، ط١، ٢٠١٠.

٤٧. عبد المالك مرتاض، النص الأدبي من أين وإلى أين ، ص٥.
٤٨. انظر صفحة ٣٦ من المدخل.
٤٩. جان بياجه، البنيوية، ص٨.
٥٠. ينظر: إبراهيم محمود خليل، النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك، دار المسيرة للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٣، ص ٩٥.
٥١. المرجع السابق، ص٩٦.
٥٢. المرجع السابق، الصفحة نفسها.
٥٣. انظر: إبراهيم محمود خليل، النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك ، ص٩٦.
٥٤. عز الدين المناصرة، علم الشعريات (قراءة مونتاجية في أدبية الأدب)، دار مجدلاوي، عمان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م، ص٥٤٠ وما بعدها
٥٥. والتي يمكن تسميتها بأنساق صغرى.
٥٦. ينظر: فاتح علاق، مفهوم الشعر عند رواد الشعر الحر، ص١٩٥.
٥٧. كمال أبو ديب، في الشعرية، مؤسسةالأبحاث العربية، ط١، بيروت.د.ت ص٨٩.
٥٨. كمال أبو ديب، في الشعرية ، ص٩٠.
٥٩. نازك الملائكة، سيكولوجية الشعر، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد ١٩٩٣، ص١٠.

المصادر والمراجع

١. إبراهيم مجدي عزيز، موسوعة التدريس، ج.١، دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان ٢٠٠٤.

٢. إبراهيم محمود خليل، النقد الأدبي الحديث من المحاكاة إلى التفكيك، دار المسيرة للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٣.

٣. ابن فارس أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا، مقاييس اللغة، دار صادر، بيروت، ط٥، مجلد٥، ١٩٩٩.

٤. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، د.ط، مجلد١٤، ٢٠٠٣.

٥. جمال بن حمدان، الأنساق الذهنية في الخطاب الشعري، مطبعة النجاح الجديدة، المغرب، ط١، ٢٠٠٩.

٦. زكريا إبراهيم، مشكلة البنية، مكتبة مصر، القاهرة، ١٩٧٦.

٧. سعيد الغانمي وآخرون، معرفة الآخر مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة.

٨. سمير سعيد حجازي، النظرية الأدبية ومصطلحاتها الحديثة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط١، ٢٠٠٤.

٩. سهيل ادريس، المنهل قاموس فرنسي عربي، دار الآداب، بيروت، ط٢٠٠٦.

١٠. صلاح فضل، النظرية البنائية في النقد الأدبي، مكتبة الأنجلو مصرية، ط٢، ١٩٨٠م.

١١. طاهر بوغازي، القيم التربوية مقاربة نسقية، دار الحبر، الجزائر، ط١، ٢٠١٠.

١٢. عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة من البنية إلى التفكيك، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، الكويت، العدد٢٥٢، سنة ١٩٩٧.

١٣. عبد الفتاح أحمد يوسف، قراءة النص وسؤال الثقافة، استبداد الثقافة ووعي القارئ بتحولات المعنى، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن، ٢٠٠٩.

١٤. عبد الله الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي، ط٢، ٢٠٠١ لبنان، بيروت.

١٥. عز الدين المناصرة، علم الشعريات (قراءة مونتاجية في أدبية الأدب)، دار مجلاوي، عمان، ط١، ٢٠٠٧م.

١٦. عمر مهيبل،من النسق إلى الذات قراءة في الفكر الغربي المعاصر، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط١، ٢٠٠٠.

١٧. فاتح علاق، مفهوم الشعر عند رواد الشعر الحر، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق ٢٠٠٥.

١٨. فتحي بوخالفة، التجربة الروائية المغاربية دراسة في الفاعليات النصية وآليات القراءة، عالم الكتب الحديث، ط١، أربد، الأردن ٢٠١٠.

١٩. الفيروز أبادي، القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٨، ج٣،

٢٠٠٥.
٢٠. قاموس أطلس انجليزي عربي، دار أطلس للطباعة والنشر، ط ١، ٢٠٠٣.
٢١. كمال أبو ديب، جدلية الخفاء والتجلي دراسات بنيوية في الشعر، دار العلم للملايين، بيروت، د.ط، د.ت.
٢٢. مجموعة مؤلفين، مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، ترجمة رضوان ظاظا، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد ٢٢١، ١٩٩٧.
٢٣. محمد لطفي اليوسفي، في بنية الشعر العربي المعاصر، دار سراس للنشر، تونس ١٩٨٥.
٢٤. محمد مفتاح، التشابه والاختلاف، المركز الثقافي العربي، لبنان، ط١، ١٩٩٦.
٢٥. معن خليل عمر، معجم علم الاجتماع المعاصر، دار الشروق، عمان ٢٠٠٦.
٢٦. نازك الملائكة، سيكولوجية الشعر، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد ١٩٩٣.
٢٧. إديث كريزويل، عصر البنيوية، ترجمة جابر عصفور، دار سعاد الصباح، الكويت، ط١، ١٩٩٣.
٢٨. ايان كريب، النظرية الاجتماعية من بارسونز غلى هامبرماس، ترجمة محمد حسين غلوم ومراجعة محمد عصفور، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد ٢٤٤، ١٩٩٩.
٢٩. بيير زيما، النقد الاجتماعي نحو علم اجتماع النص الأدبي، ترجمة: عايدة لطفي، دار الفكر، القاهرة، ط١، ١٩٩١.
٣٠. جان بياجه، البنيوية، ترجمة: عارف منيمنه وبشير أوبري، منشورات عويدات، بيروت، ط٤، ١٩٨٥م.
٣١. جوليا كريستيفا، علم النص،ترجمة فريد الزاهي، دار توبقال للنشر، المغرب.
٣٢. روبرت شولز، البنيوية في الأدب، ترجمة: حنا عبود، اتحاد الكتاب العرب، ١٩٧٧م.
٣٣. روزنتال. م. يودين. ي، الموسوعة الفلسفية، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٧٤.
٣٤. نيكلاس لومان، مدخل إلى نظرية الأنساق، ترجمة يوسف فهمي حجازي، منشورات الجمل، ألمانيا، ط١، ٢٠١٠.
٣٥. محمد الأمين بن الناتي، أطروحة دكتوراه، الثقافة الشنقيطية مقاربة نسقية، اشراف الدكتور محمد مفتاح، جامعة محمد الخامس، الرباط، المغرب، السنة الجامعية ٢٠٠٧-٢٠٠٨.
٣٦. محمد عالي خنفر، نسقية الشعر العربي، أطروحة دكتوراه، اشراف محمد السرغيني، جامعة الحسن الثاني المحمدية، الدار البيضاء، المغرب، ج.١، السنة الجامعية ٢٠٠٠-٢٠٠١.
37. Rosnay. le macroscope vers une vision global. point du seuil. 1975.